# أول سفر في تاريخ البشر

أبوالبشر أول من ابتدأ السفر، لقد سافر سفره الأول من الجنة إلى الأرض، من البقاء إلى الفناء، ومن الراحة إلى العناء، سافر من النعيم، وجوار الرب الكريم، إلى الكدح المستديم، سافر عن الأنهار والأشجار والظلال، إلى الصحاري والوهاد والجبال، كان ذلك السفر بداية التعب والشقاء، والكلفة والعناء، التي كتبت على آدم وذريته بجريرة الذنب وشؤم المعصية وتبعة الخطيئة، ونكد المخالفة ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾.

فلما استجاب آدم لمشورة إبليس ـ لعنه الله ـ وخالف أمر مولاه، حُكم عليه بمغادرة الجنة، في الحال، إلى دار الفناء والزوال، فأهبط منها إلى الأرض ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

لقد صدرت الأوامر الربانية بمغادرة آدم وحواء وإبليس من الجنة، فأما آدم فقد تاب إلى ربه وأناب إليه، فتاب عليه، وعلى زوجه ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ وأما إبليس فخرج منها مذؤوماً مدحوراً ملعوناً، لأنه أبىٰ السجود لآدم مع الملائكة، وأخذه الكبر والإعجاب بالنفس ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ

أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

ويروى أن آدم ـ عليه السلام ـ أُهبط بالهند وحواء بجدّة، وأنهما بعد ذلك تقابلا وتعارفا في عرفات.

ويروى أن آدم ـ عليه السلام ـ نزل من الجنة بالحجر الأسود، وبقبضةٍ من ورق الجنة فبثه في الهند فنبت شجرة الطيب هناك. وقيل: أُهبط آدم بالصفا وحواء بالمروة.

وكان سفر آدم ـ عليه السلام ـ وهبوطه من الجنة في يوم الجمعة. قال ﷺ: «**خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها**» [أخرجه مسلم].

وقد سافر آدم للحج كما في بعض الروايات التي تروى، وقد روي أيضاً في الحديث أن الله أخذ الميثاق عليه بنَعمان يوم عرفة. عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾**» [الصحيحة: ١٦٢٣].

وذكر ابن جرير عن ابن عباس: إن الله قال يا آدم إن لي حرماً بحيال عرشي، فانْطِلق فابن لي فيه بيتاً فطف به كما تطوف ملائكتي بعرشي، وأرسل الله له ملكاً فعرفه وعلمه المناسك.

وبعد أن سن لنا أبونا آدم عليه السلام السفر وبعد أن عُمِّر ألف عام سافر مرةً أخرى إلى المكان الذي قدم منه إلى ربه سبحانه وتعالى.

# من فوائد السفر

للسفر فوائد عظيمة وآثار حميدة على الإنسان، ونذكر هنا طرفاً من تلك الفوائد، ودرراً من تلك الفرائد.

١ـ قراءة معاني الوحدانية في دفتر الكون، ودراسة براهين العظمة في سِفْر الحياة.

وكتابي الفضاء أقرأ فيه صوراً ما قرأتها في كتاب

يقرأ المسافر في دفتر الكون آيات البارئ، وحكمة الخالق، وبديع صنع المبدع.

فيا عجباً كيف يعصى الإلـ ـه بل كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

يقول تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾ [العنكبوت: ٢٠]

٢ـ اكتساب المعيشة والبحث عن أسباب الرزق الحلال. يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥]

ويقول تعالى: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]

قال الشاعر:

وقفتُ وُقوفَ الشَّكِّ ثم استمرَّ لي يقيني بأن الموتَ خيرٌ من الفقر
فَوُدِّعتُ من أهلي وبالقلبِ ما بِهِ وسِرتُ عن الأوطان في طلبِ اليُسرِ
وباكيةٍ للبين قلتُ لها: اصبري فَلَلْموْتُ خيرٌ من حياةٍ على عُسْرِ

سأكْسِبُ مالاً أو أموتُ ببلدةٍ يَقِلُّ بها فيضُ الدموعِ على قبري

وقال الآخر:

ليس ارتحالك في نفس الغنى سفراً بل المقام على فقر هو السفر

وقال الآخر:

صبر الأديب على الهوان مذلة ما للأديب يُرى بدار هوان
أرض الإله لخلقه مبسوطةٌ والرزق مقسومٌ بكل مكان

وقال الآخر:

وما طلبُ المعيشة بالتمني ولكن أَلْقِ دَلْوَك في الدِّلاءِ
يجيء بمائها طوراً وطوراً يجيء بحَمْأةٍ وقليلِ ماءِ
ولا تقعدْ على كسل التمنِّي تُحيلُ على المقدَّر والقضاءِ

وقال الآخر:

ألا خلّني أمضي لشأني ولا أكُنْ على الأهل كلاًّ إن ذا لشديدُ
تُهَيِّبني ريبَ المنون ولم أكن لأهرب مما ليس منه محيد
فلو كنتُ ذا مالٍ لَقرّب مجلسي وقيل إذا أخطأتُ أنت رشيد
فدعني أجول الأرض عمري لعله يُسرُّ صديقٌ أو يغاظ حسود

وقال آخر:

وما هي إلاَّ بلدةٌ مثل بلدتي خيارهما ما كان عوناً على دهري

٣ـ مفارقة الديار التي لا يجد فيها الإنسان مكانه اللائق به، أو يرى في ساكنيها جفوة وتنكراً، وسوء معاملة، أو مذلة أو إهانة.

قال الشاعر:

إذا ما ضاق صدرك من بلادٍ ترحَّلْ طالباً أرضاً سواها

عجبتُ لمن يقيم بأرض ذلٍّ ... وأرض الله واسعةٌ فضاها
فنفسك فُزْ بها إن خفتَ ضيماً ... وخلِّ الدار تنعي من بناها
فإنك واجدٌ أرضاً بأرضٍ ... ونفسك لم تجد نفساً سواها

وقال آخر:

ومثلي إذا ما الدار يوماً نبتْ به ... تحوَّل عنها واستمرت سرائرهْ
إذا أنت لم تُغبط بدارٍ سكنتها ... فبعها بأخرى أو بجار تجاوره

وقال آخر، وبالروعة ما قال:

ارحل بنفسك من أرضٍ تضام بها ... ولا تكن لفراق الأهل في حُرَقِ
من ذلّ بين أهاليه ببلدته ... فالاغتراب له من أحسن الخُلقِ
الكحل نوعٌ من الأحجار منطرحاً ... في أرضه كالثرى يُرْأى على الطُّرقِ
لما تغرَّب نال العز أجمعهُ ... وصار يحمل بين الجفن والحدقِ

وقال الآخر:

فغرِّب ولا تحفل بِفُرقةِ موطنٍ ... تَفُزْ بالمنى في كلِّ ماشئتَ من حاجِ
فلولا اغترابُ المسكِ ما حلَّ مَفْرِقاً ... ولولا اغتراب الدُّرِّ ما حلَّ في التّاجِ

وقال الآخر:

بلادُ الله واسعةٌ فضاءً ... ورزق الله في الدنيا فسيح
فقل للقاعدين على هوانٍ ... إذا ضاقت بكم أرضٌ فسيحوا

٤ـ انفراج الهم وزوال الغم والتجديد على النفس وكسب الأصدقاء والتعرف على البلاد.

تنقل فَلَذَّاتُ الهوى في التنقِّلِ ... وَرِدْ كل صافٍ لا تقفْ عند منهلِ
ففي الأرض أحبابٌ وفيها منازلٌ ... فلاَ تَبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ

ولا تستمع قول امرئ القيس إنه مضلٌ ومن ذا يهتدي بمضلِّلِ

يقول الشافعي جامعاً لبعض فوائد السفر.

تغرّب عن الأوطان تكتسب العلا وسافر ففي الأسفار خمس فوائدِ
تَفَرُّجُ همٍّ واكتساب معيشةٍ وعلمٌ وآدابٌ وصحبةُ ماجدِ

وقال آخر:

ما في المقام لذي عقلٍ وذي أدبِ من راحةٍ فدع الأوطان واغتربِ
سافر تجد عوضاً عمن تصاحبه وانصبْ فإن لذيذالعيش في النصبِ
إني رأيت وقوف الماء يفسده إن سال طاب وإن لم يجرْ لم يطبِ
والأسدُ لولا فراق الغاب ما قنصت والسهم لولا فراق القوس لم يصبِ
والشمس لووقفت في الفلك دائمةً لملها الناس من عُجْمٍ ومن عربِ
والبدر لولا أفولٌ منه ما نظرت إليه في كل حينٍ عين مرتقبِ
والتِّبر كالتُرْب ملقىً في أماكنه والعود في أرضه نوعٌ من الحطب
فإن تغرَّب هذا عزّ مطلبهُ وإن أقام فلا يعلو على رُتبِ

٥ـ إذهاب الملل من طول المخالطة، والتلذذ بحلاوة اللقاء بعد طول الفراق.

وطول مقام المرء في الحي مُخْلِقٌ لديباجتيه فاغترب تَتَجَدَّدِ
أَلَمْ تر أن الشمس زِيدتْ محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمدِ

وقال آخر:

ألائمتي كُفِّي الملام من الذي أحاوله من رحلةٍ وسِفَارِ
فلولا سُرى البدر المنير لعاقَهُ عن التمِّ لبثٌ في مغيب سِرارِ

وهذا كعب بن مالك يقول:

إن كنت تعلم أن الأرض واسعة ... فيها لغيرك مرتادٌ ومرتحلُ
فارحل فإن بلاد الله ما خُلقتْ ... إلاَّ ليسلك منها السهل والجبلُ
إن ضاق بي بلد هيَّا له عوضاً ... وإن نأى منزلٌ بي كان لي بدلُ
وإن تغير لي عن وده رجلٌ ... أصفى المودة لي من بعده رجلُ
لم يقطعِ الله لي من صاحب أملاً ... إلاَّ تجدد لي من بعده أملُ
لا تمتهن أبداً خديك من طمع ... فما لوجهك نور حين يبتذلُ
وابغِ المكاسبَ من أزكى مطالبها ... من حيث تُحملُ حتى ينفذ الأجلُ

٦ـ أخذ العظة والعبرة من أحوال الأمم السابقة فإن الأمم والدول والبشر مهما عاشوا فإن مصيرهم إلى الزوال والفناء مهما اكتسبوا من القوة والبطش والحضارة ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧]

فيكون في ذلك حافز للإنسان على استغلال الحياة فيما ينفعه ويقربه من ربه ويجعله مع الذين أنعم الله عليهم ﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾ [غافر: ٢١]

٧ـ اكتساب الأصحاب واتخاذ الأصدقاء والتعرف على الوجوه الجديدة.

ففي الأرض أحبابٌ وفيها مناهلٌ ... فلا تبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ

# المسافر والطبيعة

تلك الطبيعة قف بنا ياساري ... حتى أُريكَ بديع صنع الباري
فالأرض حولك والسماء اهتزتا ... لـروائـع الآيـات والآثـار
ولقد تمرُّ على الغدير تخاله ... والنبتِ مِرآةً زهت بإطار
حلو التسلسل موجُهُ وخريرُه ... كأنامل سارت على أوتار
ينساب في مخضلَّةٍ مبتلَّةٍ ... منسوجة من سندس ونضار
وترى السماءضحى وفي جنح الدجى ... منشقةً عن أنهر وبحار
في كل ناحية سلكْتَ ومَذْهب ... جبلان من صخر وماءٍ جاري

ليس للحياة قيمةٌ إذا اقتصرت على المادّيات وانغمست فيها ولم تعبأ بروعة الطبيعة، وأسرار الكون، ولم تلتفت إلى جمال الأزهار، وتألق النجوم، وزينة السماء، وخرير الماء، وعظمة الجبال، وأسرار الوهاد. إن العاطفة هي ملح الحياة، وبها يدرك الإنسان أسرار الوجود، وباطن العالم.

الإنسان ينبغي أن يتجاوب مع الطبيعة ويشعر بها. يشعر بجمال السماء والأرض، وجمال الطيور والأزهار، والحدائق والأشجار، وشروق الشمس وغروبها، وعظمة الأنهار والبحار... كم في هذا الكون من الجمال الخلاَّب، ولكنه يحتاج إلى عينٍ تنظره، وقلوب تتأمله ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧ـ٢٠].

إن من فوائد السفر التمتع بمظاهر الطبيعة الخلاَّبة، ومباهجها الجذابة،

ومياهها المنسابة، فالمسافر يتأمّل الجبال الشاهقة، والأعلام الشامخة ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ فيخلب لبَّه تركيبها البديع، وشأوها الرفيع، يتأمل صخورها العملاقة، وتروقه ألوانها الزاهية ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر].

هذه جبال معمَّمة بالثلوج، وأخرى مكسوة بالأشجار، وتلك صخرية جرداء، جبالٌ تفتن النظر بجمالها وعظمتها، وتعاريجها وارتفاعها، في أعاليها يتعانق السحاب، وفي هيكلها تتلون الصخور، وفي باطنها المناجم تعجّ بالخير، وفي أسفلها الوديان تموج بالحياة، ثم هي تشمخ بقممها كأنما تريد أن تناطح السماء.

وبينا المسافر كذلك إذا به يتخطاها إلى سواها ويجاوزها إلى غيرها، يودعها ليمرَّ بالمروج الخضراء، والحدائق الغناء.

وأطلق الطير فيها سَجْع منطقه ... ما بين مختلف منه ومتفقِ
والظل يسرق بين الدوح خطوته ... وللمياه دبيب غير مسترق
وقد بدا الورد مفترا مباسمه ... والنرجس الغض فيها شاخص الحدق
والسحب تبكي وثغر البرق مبتسم ... والطير تسجع من تيهٍ ومن أنق
فالطير في طرب والسحب في حرب ... والماء في هرب والغصن في قلق

والمسافر يمتع ناظريه بالأشجار المثمرة، والورود المزهرة، يعبر الوادي الجميل، وقد اشتبكت أشجاره، ولاحت ثماره من أحمر وأصفر وأزرق وأخضر وغيرها، وبين ذلك أنواع الرياحين والزهور والورود ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا

﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام].

إن الثمار والأزهار عالم عجيب غريب، وهي عالم وحده، كعالم الطيور، وعالم الإنسان، تتعدد مناظرها، ويتنوع جمالها، وتتفاوت من حيث روائحها، ففيها قوي الرائحة كالفل والياسمين، ومتوسط الرائحة كبعض الورود والقرنفل، وضعيف الرائحة كالأقحوان، ومنها ما ليس له رائحة، وليس يتوقف جمال الأزهار والورود على الرائحة، فالرائحة تتصل بالشم، وهو أقل الحواس قيمة إذا قيس بالسمع والبصر، فهنالك من الأشجار والورود والأزهار ما تكمن قيمة المتعة بها في رؤيتها والتأمل في بديع ألوانها وأشكالها.

فما تقع العين إلاَّ علىٰ ... رياض تصنِّف أنوارها
يفتِّح فيها نسيم الصَّبا ... خباها ويهتك أستارها
ويدني إلى بعضِها بعضَها ... كضمِّ الأحبة زوَّارها
تغض لنرجسها أعيناً ... وطوراً تحدِّق أبصارها
إذا مزنةٌ سكبتْ ماءها ... علىٰ بقعة أشعلت نارها

وتشرق النفس ويهفو الفؤاد لمنظر الماء الرقراق وهو يختال من بين الأشجار والأزهار فيروي عطشها ويزيد رونقها ويتمم بهجتها.

وتنوَّعت بُسط الرياض فزهرها ... متباين الأشكال والألوان
من أبيض يققٍ وأصفر فاقعٍ ... أو أزرقٍ صافٍ وأحمر قانِ
والظل يسرع في الخمائل خطوه ... والغصن يخطر خطرة النشوانِ

والشمس تنظر من خلال فروعها نحو الحدائق نظرة الغيرانِ
والأرض تعجب كيف يضحك والحيا يبكي بدمع دائم الهملانِ
حتى إذا افترَّتْ مباسم زهرها وبكىٰ السحاب بمدمع هتانِ
طفح السرور عليَّ حتى إنه من عظم ما قد سرَّني أبكاني

* * *

انظر إلى زهر الربيع وما جلت فيه عليك طرائفُ الأنوارِ
أبْدَتْ لنا الأمطارُ فيه بدائعاً شهدتْ بحكمة مُنْزِل الأمطارِ

* * *

ألستَ ترى وَشْي الربيع المنمنما وما رَصّع الربعي فيه ونَظَّما
فقد حَكَتِ الأرضُ السماء بنورها فلم أدر في التشبيه أيهما السما
فَخَطْرَتُها كالجو في حسن لونه وأنوارُها تحكي لعينيكَ أنجما
فمن نرْجِس لما رأى حسن نقشه تداخله عُجْبٌ به فتبسما
وأبدى على الورد الجني تطاولاً فأظهرَ غيظ الورد في خدِّه دما
وزهر شقيقٌ نازعَ الوَرْدَ فضله فزاد عليه الورد فضلاً وقدما
وظلَّ لفرط الحزن يلطمُ خَدَّه فأظهر فيه اللطمُ جمراً مضرماً
ومن سوسن لما رأى الصبغ كله على كل أنوارِ الرياض تقسما
تجلْببَ من زرْقِ اليواقيتِ حُلَّةً فأغرب في الملبوس منه وأحكما
وأنوار منثور تخلف شكلها فصار بها شكل الربيع متمما

ثم يجاوز المسافر ذلك ليمر بالصحاري الواسعة، والوهاد الشاسعة، يتسلَّىٰ بمطاردة السراب حين يتراءى أمامه على بعد وكأنه الماء الزلال حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً فيثير عنده ذلك المثل العجيب الذي ضربه الله

تعالى لأصحاب الأعمال الخاسرة الذين عملوا أعمالاً كثيرة فظنوا أنها تنفعهم فلم تُغن عنهم من الله شيئاً لأنهم كفروا بالله ورسوله ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾.

وللصحراء جمالها الساحر، سكون عميق يهدِّىء الأعصاب، وصفاء جو ينعش النفس، وأُنسٌ بالطبيعة كما خلقت، وجوٌّ فسيح طليق تتجاوب فيه الرياح، فلا يحبسها بناء، وشمس تسطع فلا يقيدها قيد، وللهواء وللشمس طعم ولون ورائحة غير ما لها في الحاضرة والمدينة، يشعر الإنسان فيها بقربه من الطبيعة وقربه من ربه، الخالق الكريم، التواب الرحيم، الذي يفرح بتوبة عبده إليه أشد من فرح إنسان كان بصحراء شاسعة، وفلاة موحشة ومعه راحلته وعليها طعامه وشرابه فانفلتت منه فأيس منها، فجلس إلى جذع شجرة ينتظر الهلاك فأخذته إغفاءة ثم أفاق فإذا بها واقفة عند رأسه فقام إليها وأمسك بزمامها ثم صاح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح.

فالصحراء تذكر المرء بهذا المثل الرائع والخبر الماتع الذي أخبرنا به ﷺ.

**الصحراء:**

يقول عبدالرحمن شكري:

أرَحْبُكِ أم صمتٌ على الأرض غالب ... غدا مُصْحِراًمن روعه وهو هائب

كصمت الخشوع المطرقين تروعهم ... مقابرُ صرعى للردى وخرائب

حكى خدعة الآمال آلك رافعاً ... على الأفق بُشْرى كذَّبتها العواقب

سراب الأماني في الحياة خديعةٌ ... وقد تُهلكُ المرء المنى والرغائب

ومن ضل في خرق من العيش لبه ... كمن خذلته في الفيافي المذاهب
تفَتَّح أبواب الجحيم عن اللظى ... كأن شواظ القيظ يسفيه دائب
سموم كدُفَّاع البراكين أو لظى الـ ... ـحرائق يصلاه الحصا والنجائب
أما يخشع السُّمَّار من كثرة الدنا ... ويذهل من رحب الفضاء المراقب
يبيت يناجي النجم والنجم سامر ... فتُفْضي إليه بالحِوارِ الكواكب
كأن لحاظ النجم من لحظ عاقل ... وأن رقيباً في السماء يراقب
يسائله عن عيشه أين سِرُّهُ ... كأن وراء النجم ما هو طالب
إذا خط فيك الدهر سطراً محوتِه ... كذا اليَمّ، لا يقوى على اليَمِّ كاتب
وتُرْقل فيك اليعملات وإنما ... سفائن لج البيد تلك الركائب
وللبحر أمواج وللبيد مثلها ... إذا هب إعصارٌ على الركب كارب
فيغرق في لجٍ من الترب حائنٌ ... كما احتشدت فوق السفين السوارب
ورحبك رحْبُ البحر يطويك هائب ... ويركبه ذو مطلب وهو هائب
بأفقكما للشهب رهب وروعة ... جلالكما شِبْهٌ وشِبْهٌ مقارب
وذي دولةٍ في اليمِّ قد دال أمره ... وآخر أردته لديك المطالب
ويصغر عيش المرء في اليم مثلما ... تضاءل فيك عيشه والرغائب
لِمَحْلِكِ يلقى مكرم الضيف ضيفه ... بخير، وأما خصمه فهو سالب
وتشحذه الأخطار حتى كأنما ... بنُوك سيوف ينتضيها المحارب
لقد صقلتها نار قَيْنٍ وصيقل ... كما صقلتهم في الحياة النوائب
تَنَسَّكْتِ في بُرْدِ التقشف لم يَلِنْ ... معاشٌ ولا ترجى لديك الأطايب

وهكذا يظل المسافر يتنقل في رحلته بين فنون متباينة وأشكال متغايرة، جبال ووهاد، عيون وأنهار، بساتين وأشجار، مزارع وقفار، جداول

وخمائل ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

وصاحب القلب الحي يجيد التعامل مع الطبيعة يعرف سرها، ويَسْبُر غورها، ويشكر من خلقها وأوجدها، وذوو الإيمان الصادق يزدادون إيماناً مع إيمانهم، وإحساناً مع إحسانهم، وإذعاناً مع إذعانهم ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

ولايزال المسافر الواعي صاحب الضمير الحي والخيال الواسع، والأفق البعيد، يتنقَّل في سفره بجسمه وروحه، وقلبه وعقله، فقد يكون مسافراً من طريق البحر، فيتأمل عظمته، ويتدبر هيبته، ويتفكر في عجائبه، ويتعوذ من مخاطره، ويتأمل في المخلوقات التي تعيش فيه، والسفن والبواخر التي تمخر عبابه ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

وقد يكون السفر عن طريق الجو، وما أدراك ما الجو. وما أدراك ما السفر في الطائرة.

المسافر في الجو يساومه الموت، ويداعبه الهلاك، ينظر في الأرض فإذا هي في نظره أبعد من السماء، وينظر في السماء فإذا هو قد جاوز السحاب. مصيره فوق قطعة من حديد، ونهايته في هزّة مسمار، إن وقع صار شذر مذر لا جبل يحمله، ولا نهر يزفّه، ولا رابيةٌ تقلّه. إذا سمع قوّة

الريح ارتبك وخاف، وإذا حدث في الطائرة صوتٌ قال هذا آخر المطاف.

ويتمتع المسافر بجمال الصباح وانبثاق الضوء، وبزوغ الشمس.

الصبح ينثر فوق مسـ ـك الليل كافور الضياء

* * *

وكأنما الشمس المنيرة إذْ بدت والبدر يجنح للغروب وما غربْ
متحاربان لذا مِجنٌّ صاغه من فضة ولذا مجنٌّ من ذهبْ

هذه الشمس الجميلة القوية تفعل أفاعيلها العجيبة في أرضنا: تبخر الماء وترفعه غيومها في السماء وتنزله ـ بأمر الله تعالى ـ أمطاراً تجري به بحاراً وأنهاراً، ويسقى به الزرع فينمو ويهيج، والأزهار فتنضج وتتفتح.

ويشعر المسافر بالرهبة والسكون عند قدوم الليل ويتأمل في عظمة العزيز الجليل ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

ويتلذذ المسافر السائح في الكون، والمنطلق في الفضاء الرّحبْ، يتلذذ بمنظر الغروب، وجمال الشمس، وهي تودع الأرض وتتوارىٰ عن الأعين شيئاً فشيئاً. ثم يبدأ البدر يطل علينا في لونه العجيب، وثوبه القشيب:

وكأن البدر لما لاح من تحت الثريّا
مَلِكٌ أقبل في التَّا ج يُفدَّىٰ ويُحَيّا

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

يقول أحد الشعراء المتأملين في جمال الطبيعة وقد رأى الشمس وهي تغرب لاسيما منظرها لمن كان يرقبها من على شاطىء البحر، فهو منظر عجيب بديع، ثم منظر الهلال حين يعقبها ويحتل مكانتها:

كأن الشمس إذْ غربتْ غريقٌ هوى في البحر أو وافىٰ مَغَاصَا
فَأتْبعها الهلال على غروبٍ بزورقه يريد لها خلاصا

ويقول آخر:

وليل ترىٰ الفجر في عِطْفهِ كما شاب بعضُ جناح الغرابْ
يغارُ الظلام على شمسه إلى أن يواريها بالحجابْ

ويقول أحد الكتاب عن الشمس:

كل شيء في الطبيعة جميل، وأجمل ما فيها شمسها. وهي في شتائنا أجمل منها في صيفنا، ولها في كلٍّ جمال.

فلها ـ صيفاً ـ جمال القوة، وجمال القهر، وجمال السفور الدائم، نُعْظِمُها ونجلها؛ ونهربُ منها ولكن نحبها؛ تقسو أحياناً ولكنا نرى الخير في قسوتها، فهي كالمربي الحكيم، تقسو وترحم، وتشتد وتلين، تلفحنا بنارها، ولكنها نار كنار الحب يكتوي بها قلب العاشق، ثم هو يرجو بقاءها ويخشى زوالها، ترسل علينا شُواظاً من نار، فتسفع جلودنا، وتكوي جباهنا، حتى إذا غلىٰ جوفنا، ووغر صدرنا، غابت عنا، وأرسلت رسولها اللطيف الوديع (القمر) فخفف من حدَّتنا، ولطَّف من سَورتنا، وأصلح ما أفسدَت، وضمَّد ما جرحت؛ فإذا خشيَتْ أن نطمئن إليه، أدركتها الغيرة منه فغيبته، وطلعت علينا ببهائها وجمالها وجلالها، وهكذا دواليك.

وهي ـ شتاءً ـ تطلع علينا بوجه آخر، ترينا فيه جمال الحنو، وجمال الدعة، وجمال الرحمة والعطف، وجمال الغادة اللعوب، تشاغلك فتظهر وتختفي، وتسفر وتحتجب، وتخرج من قناعها ثم تتقنع.

وتنتقم من رسولها الذي غارت منه صيفاً، فتطلعه علينا في جو بارد لا نطيقه حتى لا نفكر إلاَّ في دفئها ونعمتها، ولا نشتاق لشيء شوقنا لرؤيتها.

فما أجملها قاسية وراحمة! وما أجملها واصلة وهاجرة!

تتلون بشتى الألوان فتسحر العقول، وتبهر العيون؛ فهي تارة بيضاء، وتارة صفراء، وتارة حمراء؛ ثم لا تستطيع أن تحكم هي في أيها أبهى وأجمل، فهي تزين ثيابها بأكثر مما تزينها ثيابها.

وقال أحد الشعراء، يصف الشمس:

مُخَبَّأةٌ، أما إذا الليلُ جنها ... فتخفى، وأما بالنهار فتظهرُ
إذا انشق عنها ساطع الفجر وانجلى ... دُجى الليل وانجاب الحجاب المستَّرُ
وألبسَ عرضُ الأرض لوناً كأنه ... على الأفق الشرقي ثوبٌ معصفر
تحلّت، وفيها حين يبدو شعاعها ... ولم يحل للعين البصيرة منظر
بلون، كدرع الزعفران يشوبهُ ... شعاعٌ تلألأ، فهو أبيض أصفر
إلى أن عَلَتْ وابيضَّ منهااصفرارها ... وجالت كما جال المهيج المسهر
وجللت الآفاق ضوءاً ينيرها ... فخرَّ لها صدر الضحى يتَسعَّر
ترى الطلَّ يطوى حين تعلو وتارة ... تراه إذا مالت إلى الأرض ينشر
وتدنفُ حتى ما يكاد شعاعها ... يبين إذا غابت لمن يتبصر
كما بدأتْ، إذ أشرقتْ، في مغيبها ... تعود كما عاد الكبير المعمَّرُ
فَأفنتْ قروناً، وهي في ذاك لم تزل ... تموت وتحيا كل يوم وتُنشرُ